الفصل الأول

من المدينة إلى خيبر

خلال الأيام القليلة التي قضيتها في المدينة كنت شديد الانشغال بالتحضيرات للرحلة لدرجة منعتني من حضور الفروض الدينية الواجبة على جميع زائري مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولم يسمح لي بتجاهل هذه الحقيقة من قبل الرجل الشهم الذي كان سينال شرف إرشادي إلى هذه المشاعر الواجبة، وكان في الحقيقة يعمل دليلاً لي في زياراتي السابقة للمدينة المقدسة. وقد كان الأمير يودعني عند باب بيته عندما جاء الرجل يشتكي من عدم انتباهي لواجباتي الدينية، واضطر الأمير إلى أن يؤكد بأنني -في الواقع- قد ارتكبت مخالفة للشرع. وتمت تسوية هذا الأمر بسهولة، فقد كان كل ما يريده الرجل هو المال، وقد دعا الله أن يمنحني البركة مقابل النقود التي أخذها، وأعرب عن أمله في أنني سوف أمنحه شرف مرافقتي لمشاهدة المواقع التاريخية في المنطقة عندما أمر بهذا الطريق في المرة القادمة.

وبعد أن خرجنا من المدينة عبر بوابة دمشق وتفادينا كوم آثار يثرب، العاصمة القديمة، فقد دخلنا منطقة العيون الغنية بحدائق

النخيل في أقصى الطرف الشمالي لمنطقة المدينة. وعلى طول الجانب الأيمن لنا يمتد جبل أحد التاريخي، والذي يوجد على ذروته العليا واحد من قبور هارون الكثيرة. وفي مستوى أدنى كثيراً كانت توجد قلعة تركية صغيرة مهجورة تغرينا بفحصها وتمكّنا من إلقاء نظرة عامة جيدة على المعالم الموجودة أمامنا وخلفنا.

ومشينا، دليلي -ويدعى عياضاً وهو من قبيلة بني راشد (هتيم)- وأنا صعوداً إليها بطريق عربات متهدم كان الأتراك قد شيّدوه، والذي استمر على طول حافة جبل أحد لينزل إلى وادي نقمي، الذي يعد في الواقع قناة من وادي حمض الكبير، في النقطة التي يدخل عندها الأخير امتداد وادي العقيق في عيون حمزة وهو الوادي الذي يقع رأسه بعيداً في جبال الطائف إلى الجنوب. وبينما تكاسل بقية مرافقينا بجوار العربات، فقد قمنا -عياض وأنا- بدراسة المنطقة، التي يعرفها جيداً.

إن قبة قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) تقع في اتجاه جنوب -جنوب- شرق على بعد حوالي خمسة أميال، تحيطها المعالم المألوفة لمنطقة المدينة، والتي لست بحاجة إلى الإسهاب في وصفها. وتحتنا مباشرة، وفي أقصى الطرف الشمالي من حزام نخيل العيون، كان هناك التقاء الواديين الكبيرين العقيق والحمض اللذين يتدفقان شمالاً تحت اسم الحمض الذي يصل بعد مسافة إلى البحر الأحمر

ليصب فيه إلى الجنوب قليلاً من الوجه. وخلفه، إلى الشمال الغربي منا، يرتفع جبل البيضاء الجرانيتي الضخم الذي يتكون في أعلاه صخر في شكل قبة كاملة وشكل أنف، والتي تقول الشائعات أن بها شجرة بُن واحدة، ربما بقيت من مزرعة قديمة، وهي الآن ملعب للوعول والنمور. وباتجاه الشمال قليلاً ومما يهمني كثيراً، يقع جبل ذو خشب الأسود[1]، الذي سوف يمر من خلاله طريقنا. وليس من الضروري ذكر النقاط الكثيرة الأخرى بالتفصيل، تلك التي كنت قد دوّنتها في مذكراتي لأرسمها في خريطتي المتوقعة. بيد أن عياضاً تطوع بتزويدي بمعلومة ملأتني بأمل سعيد. لقد كنت قد أخبرته عن اهتمامي بكتابات وصور القدماء، مما جعله يذكر لي اسم مكان يقع في طريقنا ويوجد به الكثير من تلك الأشياء، ذلك هو وادي النمرانية.

وعند استئناف سيرنا، التزمنا مجرى وادي نقمي (الحمض) حوالي عشرة أميال حتى نقطة تركناه عندها، لنصعد باتجاه شمال -شمال شرق- شرق، بينما تابعنا أحد روافده ويسمى وادي ممناه، الذي يتجه نحو الشمال الغربي، لقد كان سيراً شديد الصعوبة على أرض حوض السيل الحجرية، الذي يبلغ اتساعه حوالي ٥٠٠ ياردة وتحفه على كلا الجانبين جبال المريخ وأم جرفين الشديدة السواد، بينما يرتفع أمامنا جبل (ذو خشب) الأسود عالياً فوق التلال المحيطة

(١) هذا اسمه القديم ويعرف حالياً بأبي النعم. انظر: الشريف إبراهيم العياشي، مجلة المنهل، مجلد ٢٦، عدد ٣، ص١٩١.

به . وامتد دربنا في قلب هذا الحاجز الضخم بممر ضيق، يتراوح عرضه بين ١٠٠ و٥٠ ياردة، وأرضه حجرية صلبة مع بقع من الرمال العميقة في قناة السيل . لمسافة تقترب من ثلاثة أميال، كافحنا وزحفنا في سير بطيء عبر هذا المانع قبل أن نخرج إلى منطقة أكثر انفتاحاً بعده، حيث توقفنا لنقدر الموقف بالقرب من رأس وادي ممناه . وكانت قبة وأنف جبل البيضاء الآن إلى الجنوب قليلاً من الغرب، وأمامنا تمتد مجموعة من التلال والجبال غير الهامة نسبياً .

وفي ذلك الحين كان النهار يقترب من نهايته، وكان أهم ما يشغلنا أن نجد موقعاً ملائماً لنصب خيمة نقضي فيها الليل . وكنت أمسح المنطقة المجاورة مسحاً أخيراً عندما شقت طلقة نارية صمت الجبال، وبعد لحظات قليلة خرج رجل من أخدود قريب، يطلب المساعدة في إحضار وعل (تيس الجبل) كان قد اصطاده لتوه . وتركنا السيارة اللوري للقيام بالمهمة المطلوبة، وواصلنا السير حتى رأس ممر ممناه الضيق، لنضرب خيامنا على المنحدر المعاكس لشعيب رديدة (أو الفريش) .

وعند موقع تقسيم مياه الأمطار وجدنا الكثير من أكوام الحجارة الكبيرة، من الواضح أن الناس قد جمعوها معاً لسبب غير واضح، على الرغم من أنها بالتأكيد ليست قبوراً أو بقايا مساكن .

ولم نكد نحط رحالنا وننصب خيامنا حتى وصل اللوري مع الصياد ووعله. لقد كنا بحاجة إلى اللحم، وقررت أن أشتريه منه، وعرضت عليه عشرين ريالاً، قبلها على مضض نظراً لأنه كان يستطيع أن يحصل على ضعف هذا المبلغ أو أكثر لو استطاع أن يأخذ التيس إلى خيبر. ولدهشتنا رفض الرجل دعوتنا لقضاء الليلة معنا والانضمام إلينا في هذا الاحتفال. بيد أننا عندما قمنا بإحضار البهيمة من اللوري لسلخها وتجهيزها للطبخ، اكتشفنا أنه - على الرغم من أنها قد ضُربت بالطلقة المميتة في مؤخرة رقبتها - إلا أن عملية الذبح الحلال (التحليل) بقطع رقبتها قد أهملت.

وقد نظر "مجلس الحرب" الجائع في المشكلة، وتقرر بأسف شديد أن مثل هذا اللحم حرام على معدة المسلمين!! وقد أذعنت بكل خضوع لهذا القرار، بينما ترك لحمه للضباع وصقور السماء. لقد أخبرنا الصياد أنه كان أكبر حيوان في مجموعة من خمسة، تشمل نعجتين كاملتي النمو وذكرين صغيرين، وكان قرنه الأيسر من أعلى طرفه حتى قبضتيه، يبلغ ٣٣ بوصة. لقد كان الوعل أوفر حظاً من غزلان السهل، ومن البقر الوحشي والنعام، حيث إن السيارة لا تستطيع الوصول إلى أوكارها العالية في وسط صخور البازلت والجرانيت المتكسرة، ولا يستطيع إلا الصياد الماهر أن يحضر للسوق طريدة مذبوحة منها من وقت لآخر. ولقد واتتنا في الحقيقة فرصة

تذوق لحم الوعول أكثر من مرة خلال مرورنا عبر منطقة الفضاء الجبلي الوعرة، التي تمتد من المدينة إلى ما بعد خيبر بكثير. إن خط سكة حديد الحجاز يعبر هذه المنطقة، وهو ليس ببعيد إلى الغرب من معسكرنا الحالي، على أنني لم أسمع عن أي زائر أوروبي سابق تخطى هذا المسار شرق الخط بين منطقتي المدينة وخيبر. وعلى كل حال، في هذه الأيام لا يستطيع المرء أبداً أن يكون واثقاً من أن أحد الجيولوجيين أو المنقبين الأمريكيين قد ألقى نظرة خاطفة على أسرار هذه الأرض البكر.

لقد تساقط بعض المطر في هذه الأجزاء مؤخراً، حيث كانت الأرض حول معسكرنا رطبة تماماً لعدد من البوصات تحت السطح. وبدأت غيوم العاصفة تتجمع حولنا بعد الغروب، على الرغم من أن الهواء ظل ساكناً ودافئاً. وكانت لمبة المفتاح المضيئة في الراديو بجوار فراشي، قد جذبت جميع الحشرات الموجودة في المنطقة المجاورة، وكان أبرزها وأشدها إزعاجاً نوع من العثة التي تلتف حول النبات. وقد أحصيت ما لا يقل عن ثلاثين منها في مرة واحدة، تلتف حول الضوء في حالة من الذهول المطلق. وقبل استئناف سيرنا في الصباح، قضيت أنا وعياض بعض الوقت على قمة جبل الضُّلُوع، الذي يطل على معسكرنا، لدراسة المنطقة من حولنا. وكان جبل البيضاء وذو خشب يحتلان المشهد من خلفنا، ولكننا لم نستطع أن

نرى شيئاً من خط سكة الحديد، على الرغم من أن العلامات الأرضية الصغيرة في المليليح، التي يمر من خلالها، كانت مرئية وواضحة في جهة الغرب. لقد زرت هذا المكان في ١٩٣١، لفحص آثار متواضعة لمستوطنة قديمة في وادي القرى الذي كان مشهوراً ذات يوم ونادراً ما يتذكره أحد الآن. ولا تزال الآبار القليلة قائمة، على الرغم من أنها ليست مستخدمة، ولكنها تدل على إمكانية إعادة بعث بعض النشاط الزراعي في المنطقة. وللأسف فإن الحكومة السعودية شديدة التحفظ في أمور خطط التحسين المتعلقة بتطوير المناطق النائية الواقعة تحت مسؤوليتها. ومن حين لآخر، وعلى مدى الثلاثين عاماً الماضية، جاءتنا تأكيدات بأن خط سكة حديد الحجاز سيتم إصلاحه وإعادة افتتاحه للمرور، بيد أن هذه الوعود لم يتم تنفيذها أبداً. فإذا تم الوفاء بها، فإن المليليح سوف تستعيد بالتأكيد مكانها المتواضع في اقتصاد الصحراء، وربما تكشف أيضاً عن بعض الآثار المثيرة من مجتمعها اليهودي القديم.

أمامنا كتلة متشابكة من الجبال، التي تمر خلالها قناة الفريش المكونة من التقاء شعيب رديدة وشعيب السيفر، ولتأخذ طريقها إلى الشمال ثم الشمال الغربي لمسافة قبل أن تتحول للغرب لتتصل بوادي الحمض في المليليح. ويتبع طريق السيارات تقريباً بحوضها البالغ ٢٠٠ ياردة لحوالي أربعة أميال، قبل أن يمر في قناة المدرج،

التي تنزل تجاه مجموعة من التلال الجرانيتية والبازلتية، التي تشمل لسان اللافا بقمته المسطحة وتحفه تلال النحسة الجميلة. وقبل أن نصلها فقد تحولنا خارجين من شعيب المدرج لعبور حوض شعيب الدارة القاسي المكون من الصخور إلى تلال الزريق الجرانيتية الحمراء، التي يدخلها الطريق عبر ممر ضيق.

وبالقرب من هنا دخلنا في مكان معزول لزيارة مجموعة من الآبار تسمى الأطْبَق، تقع في واد صخري موحش، شديد الضيق في أجزاء منه وشديد الوعورة. وكانت البئر الرئيسة، واحدة من ستة، يوجد به ماء على عمق خمسة قامات (والقامة تساوي ٦ أقدام)، ولم يُعَدْ حفره إلا في العام الماضي من قبل مالكيه، وهم بنو رشيد.

وقد تم تدعيم فتحة البئر بكتل صلبة من البازلت حتى مستوى الماء، والفتحة دائرية الشكل، وقطرها حوالي ياردة. إن وصولنا قد أزعج قطيعاً من ست أو سبع غزلان (ريم)، التي قفزت تعدو فارة إلى الممر الضيّق، وفي الأجراف المتحدرة خلفه، بينما بدا أيضاً أن أسراباً عديدة من طائر الطيهوج (وهو من فصيلة الدجاج) قد ضاقت باقتحامنا المنطقة قبل أن تتمكن من تناول شرابها اليومي. وكانت علامات قديمة للمياه تزيّن الصخور المجاورة لنا، ولكن لم يظهر بالمكان ما يوحي بأنه كان منتجعاً مشهوراً.

عدنا إلى طريق السيارات الذي سلكناه على طول وجه جبل زريق حتى نهايته الغربية، وبعدها كنا نتقي طريقنا وسط متاهة من الوديان الضيقة شديدة الانحدار وسلاسل الجبال إلى أن أتينا على قناة وادي اللحن الكبرى حيث صعدناها باتجاه الشمال الشرقي. هذا الوادي الذي يبدأ في منطقة حرة خيبر المكونّة من الحمم البركانية ويتصل به في مساره وادي شداد وبعض قنوات الصرف الصغرى، يصل في النهاية إلى الفرشة في طريقه إلى المليليح ووادي الحمض. إن وادي اللحن، الذي مشينا فيه طوال ما تبقى من اليوم، حوالي اثني عشر ميلاً، هو من أكثر الأودية التي رأيتها في الجزيرة العربية وعورة، حيث تبلغ سعته حوالي ألف ياردة عند نقطة دخولنا فيه، ويضيق إلى نصف هذا الاتساع في مناطق متفرقة منه، ثم يتسع بعد ذلك لما يزيد عن ميل.

ويحده على الجانبين سلاسل من جبال البازلت على قواعد الرايولايت مع أغطية متقطعة من الحمم البركانية، يتراوح سمكها بين عشرة إلى عشرين قدماً. إنه ليس خالياً تماماً من الشجيرات أو النباتات الأخرى، بيد أن كل شيء بدا ميتاً أو إلى زوال، وكان من الواضح أن المنطقة لم تتعرض لأي أمطار أو سيول من فترة طويلة. وكان السير صعباً على كتل العشب الميتة، وأشد صعوبة في الرمال الخشنة الثقيلة بقناة بطن الوادي. إن قمم جبل شميذ الحمراء

العظيمة، التي لاحظتها لأول مرة منذ مسافة بعيدة في وادي الفرشة، كانت لا تزال تبدو بعيدة جداً عندما كنا ننظر إليها أمامنا، وكنا لا نزال نستطيع رؤية جبل البيضاء خلفنا. وتوقفنا مدة قصيرة لأداء الصلاة وكسر رتابة هذا الأصيل المتعب، وعندما استأنفنا السير كان الوادي قد استدار فجأة نحو الشمال على طول جبل الراعيات المنخفض والمسطح، على الرغم من أنه لا تبدو له نهاية.

وكان عياض الذي أظهر أنه دليل ممتاز يعرف المنطقة معرفة تامة، قد أصابه النعاس، وربما كنت أنا نفسي أشعر بقليل من الإنهاك والتعب، عندما ارتفع مسار العربة فجأة خارجاً من الوادي ليتفادى بقعة طويلة وواسعة من الرمل ظهرت أمامنا. وعندما تأكدت من هذه الواقعة، رأيت بجوار الطريق مجموعة صغيرة من قبور عربية حديثة وعادية جداً، وسألت عياض بصورة عرضية عن سبب وجودها هناك، وكانت إجابته قد أبعدت النوم من عيني، فقد قال؛ هذه هي النمرانية! إنني لم أنس هذا الاسم أبداً، ولا وصفه للصور والكتابات التي كلمني عنها عندما كنا لا نزال على مرأى من المدينة المنورة.

وعندما سألته لماذا لم ينبهني بأننا نقترب من المكان الذي حدثني عنه، نظر إليّ في دهشة خالية من التعبير والانفعال. وسألني: أي مكان؟ وأي صور؟ وأصر على أنه لا يعرف شيئاً عن أي صور أو أي نقوش في هذه البقعة. بل إنه قال تقريباً: إنه لم يأت إلى هنا أبداً

في حياته، وبدا أنني قد حلمت بالحوار الذي أشير إليه!! وفي ذلك الوقت كانت العربة قد صعدت، وأعلنت عن نيتي في إقامة مخيمنا في المكان الذي يجب علينا فيه بحث المنطقة بكاملها عن الكتابات القديمة التي أخبرت عنها من قبل. وبالتالي افترشنا مساحة واسعة من الأرض بجوار القناة الرملية، على الرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً في عصر ذلك اليوم. وأخذت كبير الخدم معي، وهو يدعى محمد العريفي، من حاشية أمير المدينة، وانتحيت به جانباً لأخبره بالقصة وأطلب منه تقصي الأمر، بينما قمت باستكشاف المنطقة حولنا مباشرة حتى حلول المساء.

ولم أتعرف أبداً على سبب وجود هذه المقابر الحديثة في مكانها بجانب الطريق، وهو على كل حال ليس ذا أهمية كبرى. بيد أنه كان من الواضح لأول وهلة أن الطريق الذي كنا نخيّم فيه كان في وقت ما من الماضي مشهداً لتطور زراعي مهم. فكلتا ضفتي الحوض الرملي الواسع للوادي قد تم تبطينها بعناية بجدران حجرية في النقطة التي يلتقي فيها برافدٍ نشط، يسمى شعيب ثمران من الجبال المجاورة، في ما يشبه الدلتا الواسعة. وكان التبطين مكوناً من حجارة بازلتية ضخمة، غير مشذبة، ولكنها مبنية بناءً حسناً، وكان من الواضح أن منطقة الزراعة الرئيسة تقع في الضفة اليسرى للوادي. وتتناثر هنا

وهناك على المنحدرات المؤدية إلى هذه المنطقة بقايا منازل قديمة، في حين كان في الأرض المنبسطة حفرة دائرية ذات جدران من الحجارة، والتي يحتمل أن تكون خزان مياه. ولم يكن هناك بالتأكيد أي شيء يشير إلى وجود آثار عظيمة، فلا توجد بقايا فخارية على سطح الأرض، على الرغم من أنها قد تكون جرفتها السيول، كما لا توجد صور ولا نقوش من أي نوع ما عدا قليلاً من الوسوم القبلية.

إن المقبرة الصغيرة بجانب الطريق قد تكون مدفناً لأسرة واحدة أو اثنتين، تحاولان الاستفادة بالعيش المجرد في موقع قديم مهجور. وبقايا قصر الطين على ارتفاع المنحدر، وبعض جدرانه التي لا تزال واقفة بارتفاع أقدام قليلة فيبدو أنه يتكون من ثلاث غرف وفناء، يمثل بلا شك بيتهم في وسط هذا القفر الموحش. وبالقرب منه، على المنحدر أيضاً، كانت بقايا مبنى صغير مستطيل موجودة مع جزء صغير من جداره الحجري ما زال يقف سليماً. هناك خزان المياه الذي لا يزيد قطره عن حوالي اثني عشر قدماً، وما زال ممكنا تتبع جداره الدائري بالكامل إلى ارتفاع يتراوح من قدم إلى ثلاثة أقدام. لقد شغلتني أعمال الفحص هذه طوال ما تبقى من ساعات النهار منذ وصولنا عصراً، علاوة على ساعتين إضافيتين قبل أن نشد رحالنا في صباح اليوم التالي.

وفي أثناء ذلك، وبجوار نيران المخيم، فقد سعيت أن أكشف سر حماس الدليل منذ عدة أيام قليلة مضت وصمته العنيد الآن. وكان هناك ثلاثة أسباب ممكنة لتفسير هذا الأمر. فربما كان يتملقني لكسب رضاي في بداية رحلتنا، وأغراه ذلك لتفخيم أو تضخيم بعض الذكريات الغامضة عن الوسم القبلي في هذه المنطقة، أو أنه قد أخبر رفاقي بما يعرفه ولكنهم حذروه من تشجيعي على إضاعة الوقت بغير ما ضرورة في الطريق، أو أنه كان خائفاً من الأرواح التي يُعتقد بصورة شائعة أنها تسكن مثل هذه الأماكن القديمة، وقرر عدم المجازفة بالتعرض لغضبها إن هو كشف أسرارها التي سجلها أصحابها على صخورها.

إن هذه التجربة ليست أمراً غير عادي، عندما تسافر مع عرب بسطاء يصدقون الخرافات. وأتذكر حادثاً قرب الطائف، عندما أقدم زعماء قرية صغيرة في عشية ليل ما، بكل شغف أن يأخذوني إلى قمة قُرنَيْت ثاني أعلى قمة في جبال الحجاز. وفي الصباح التالي، وعندما كنا نقترب من القمة ذات الرأسين، كان هناك بعض الهمس بين الأدلاء، ولسبب ما لم أكتشفه أبداً، اتجهوا نحو الرأس السفلى من الاثنين ورفضوا بصورة مطلقة أن يستمعوا لاحتجاجي.

وقد كان هناك فرق بسيط في الارتفاع بين الاثنين، ربما حوالي خمسين قدماً، ولكن رعبهم الظاهر من القمة العليا اضطرني إلى أن

أعتقد أن لديهم بعض الاعتراض الخرافي أو الديني على كشف أسرارها لغريب مثلي. وربما كان هذا مكاناً للتضحية القبلية (غير الإسلامية) أو كان بحق مكاناً مليئاً بالآثار. وفي حدود علمي لم يُفسر هذا اللغز أبداً، على الرغم من أن زيارتي قد تمت منذ ما يقرب من عشرين سنة مضت.

ومهما يكن من أمر، فقد خرجنا خاليي الوفاض تماماً من منطقة كانت تبدو مثيرة عن بُعد، وكان علينا، أن نعرب عن خيبة أملنا بأحسن صورة. لقد فشل عياض في هذا الاختبار ومن المؤكد أنني لن أستعين به في أي عمل مهم في المستقبل، ولكن لم تبدُ عليه أي إشارة للتوبة أو الندم.

ولم نكد نسير حوالي ميل، عند استئناف سيرنا، حتى لاحظت صقراً جاثماً على قمة جبل صخري صغير على حافة وادي اللحن عند مصب رافد صغير يدعى شعيب أبو إباه وطار الصقر عندما استدرت على الطريق متجها نحو الصخرة على أمل أن أعثر - ربما - على عشه، فما وجدته في الحقيقة، وما أثار سخط عياض بوضوح كان شيئاً مختلفاً تماماً، وهو معرض صغير وغير مثير للاهتمام بشكل كبير لصور الأقدمين!! كانت معظم الرسومات للجمال أو البعير، بيد أنه كان يوجد رسم لرجل، وآخر لتيس، وثالث لنعامة.

وقال عياض إنه لم يرها أبداً من قبل، على الرغم من أنني لم أشك مطلقاً في أن هذه الصور كانت هي في الحقيقة مصدر إلهامه الأصلي. وسرنا بصعوبة حوالي ثلاثة أميال، حتى وصلنا إلى رأس وادي اللحن، الذي يبلغ طوله بالكامل قبل التقائه بوادي شداد حوالي عشرين ميلاً. وكنا الآن على حافة منطقة حرة خيبر البركانية الواسعة والمشهورة، وإلى البعيد، البعيد جداً كنت أستطيع أن أرى سلسلة الجبال العالية وقمة الجبل الأبيض.

ويُعتقد أنه قد سُمي بهذا الاسم لأنه كان أسود فاحماً. ومن الممكن -بل من المحتمل في الحقيقة- أن يكون هذا الجبل قد تعرض لهطول الثلج عليه في فترات زمنية بعيدة من تاريخ البشرية، ولكنه في أحيان كثيرة يلمع بضوء أبيض قليلاً نتيجة انعكاس أشعة الشمس على صخوره السوداء المصقولة.

وبيننا وبينه، كانت تمتد الحرة العظيمة بلا انقطاع حتى الشمال، والشرق، والغرب، بينما خلفنا كانت تمتد منطقة من البازلت الداكن والجرانيت الأحمر والتي سرنا خلالها على مدى اليومين الماضيين. وعلى طول حافتها القريبة، من الشرق للغرب، كانت تمتد قناة وادي الغرس العظيمة، التي تهبط من مستجمع أمطارها المشترك مع أودية شقراء (وهو أحد روافد وادي الحناكية) والصويدرة والنخيل وتستمر قناة الغرس من خلال الجزء الجنوبي من الحرة، حيث تتجمع

مياه التصريف من قنواتها الصغرى الكثيرة على الطريق، وتمر جنوب خيبر نفسها لتعبر خط السكة الحديدية وتتصل بوادي الحمض. إن سلاسل جبال ومرتفعات مستجمع مياهها الشرقي كانت ظاهرة بوضوح على مسافة، في حين كان بجوارنا نحو الغرب يقف جبل شميذ الأحمر الهائل كحارس على مدخل كان ذات يوم معقلاً مشهوراً. وخلفنا على نفس الطريق كان جبل البيضاء لا يزال ظاهراً بجلاء، بينما كانت صحراء الحرة أمامنا تمتلئ بما لا يمكن حصره ولا عده من القمم، والأقماع، وفوهات البراكين الخامدة.

الآن ولحوالي خمسة عشر ميلاً يزحف طريق السيارة على طول حافة حقل الحمم البركانية، بحثاً عن ممر سهل، قدر الإمكان، في وسط منطقة تتناثر فيها الصخور والحجارة الجلمودية وعبر خطوط تصريف هائلة تجري من التلال في الجنوب إلى وادي الغرس. لقد كان سيرنا قاسياً، ولكنه لم يكن صعباً للغاية، على الرغم من الصعود الشديد الانحدار من شعيب كنيفه إلى شفا الحرة كان سهلاً بكل المقاييس.

ومن هنا بدأ العبور الحقيقي لحقل الحمم البركانية، الذي يمتد مسافة بعيدة على كلا جانبي الطريق، الذي أصبح ممهداً بصورة معقولة بسبب تكرار مرور السيارات عليه، عندما كنا نتجه بصورة

غامضة إلى سلسلة جبال وقمم العطوة، التي تبعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً في اتجاه الشمال من الطريق، على الضفة البعيدة (اليمنى) لوادي الغرس. وعلى كلا الجانبين لم يكن هناك شيء إلا الكرات السوداء الصلبة والصخور والحجارة القاسية في الحرة، وأقماعها وفوهاتها الكثيرة، والتي كنت قادراً على تسجيل أسمائها من ذخائر المعرفة الغنية التي يختزنها عياض. وكانت عدة فروع من وادٍ عميق، يسمى شعيب خبو تمتد خلال الصحراء السوداء في طريقها إلى وادي الغرس، قد سببت لنا بعض المشاكل بمنحدراتها الحادة القاسية ومرتفعاتها الصخرية التي لا تقل حدة عن منحدراتها. بيد أن السير كان معقولاً بصورة عامة، والذي يستحق الشكر الجزيل عنه الرواد الأوائل لهذا الطريق.

وخلف فوهة الخرنيق الجميلة المتهدمة، توقفنا لفحص آثار مبنى صغير مجهول، والذي من الممكن أن يكون قبراً لأحد الأعيان المنسيين. ومن الواضح أن بُناته قد تكبدوا المشاق في بنائه، على الرغم من أن الزمن والإهمال قد حطما جزءاً كبيرا من عملهم.

ومر علينا مواطنان من خيبر، يركبان على الحمير ويبدو أنهما في طريقهما إلى المدينة، عندما كنا منهمكين في ذلك العمل، وتوقفا ليتبادلا معنا الأخبار. لقد سمعا بالفعل عن وصولنا، وكانا يأملان بصورة غامضة أن يكون هدف بعثتنا تخليص واحتهم من الملاريا

وتنظيم مشاريع الري لصالح سكانها. وقد سبقنا آخرون، منهم عدد من الخبراء الأمريكان، في السنوات الأخيرة، ولكن لم تظهر نتائج ملموسة بعد زياراتهم.

ومن المؤسف أن هذه الحالة ستعقب زيارتنا أيضاً، على الرغم من أنني كنت قادراً على إعطاء وزير المالية بعض الأفكار التي كان من الممكن تطويرها للاستفادة من مزاياها في حالة عدم تحويل جميع الأموال المتوافرة إلى مشاريع ذات مصلحة أو فائدة فورية لساكني المدن الكبرى.

لقد وفر لنا تل مريقب الذي يبلغ ارتفاعه خمسين قدماً، من صخور البازلت الضخمة قرب قمة حقل الحمم البركانية، أن نلقي نظرة رائعة على الحرة نفسها وعلى الجبال الشاهقة بعيداً خلف خيبر.

إن هذا الجزء من الحرة، على طول الضفة اليسرى لوادي الغرس، يبدو أنه يُعرف باسم حرة الكرى، في حين أن اسم حرة خيبر يمتد إلى ما وراء تلك القناة، ولكنه كان من الناحية الجوهرية حقلاً بركانياً وحيداً يتم تصريفه بشريان مركزي.

وسرعان ما كنا على رأس منحدر يهبط بنا من هضبة الحرة إلى وادي السُّلَيمْ وهو رافد رئيس من وادي الغرس.

وكان جرف الحرة الآن يبرز في مستويات منخفضة فيما وراءنا في سلسلة من الأصابع الرائعة، وكل زوج من هذه الأصابع كان يطوق وادياً، يقوم بدوره بتصريف الأرض المرتفعة ويشق طريقه نحو الشريان المركزي. وفوق أحد هذه الأصابع كانت تقف بقايا قلعة قديمة، من المحتمل أن تكون تركية، ولا تبعد كثيراً عن طريقنا. ويبدو أنها لا تستحق الفحص عن قرب، كما أن الوقت كان متأخراً في عصر ذلك اليوم. وكان من الواضح أن المنطقة أمامنا لن توفر لنا مكاناً مريحاً لإقامة مخيمنا الليلي، ولكننا انطلقنا بأقصى سرعة نستطيعها على الطريق الوعر بحثاً عن بعض الأماكن المناسبة المفتوحة. وقد غربت الشمس، وأطبق علينا الظلام، بيد أننا واصلنا السير إلى أن أتينا في النهاية إلى مخيم كبير لرجال قبيلة حرب مع الكثير من قطعان أغنامهم فيما يشبه الوادي الضيق المليء بأشجار السنط، ووراء ذلك بقليل وجدنا منطقة طينية منبسطة ومناسبة محاطة بأشجار مماثلة بعيدة عن الطريق بقليل، وهنا توقفنا لقضاء استراحة الليل. ومن منتصف الليل فما بعد هبت علينا ريح باردة جداً، ولكنها ليست قوية، كما كان الجو قارساً جداً في الصباح.

ومن سوء الحظ أن نتج عن سيرنا الصعب في الحرة مأساة خطيرة؛ إذ عندما فتحت جهاز المذياع لأسمع أخبار المساء، رفض

أن يعمل، وكان السيد، الاسم الذي نطلقه جميعاً على سائق اللوري، ربما لأنه كان رجلاً وقوراً، أو على الأرجح بسبب مظهره المميز، هو الرجل الوحيد بيننا الذي لم يكن لديه أي ادعاءات بالكفاءة الميكانيكية. قد ناديته لممارسة موهبته على المذياع، وسرعان ما اتضح أنه يعلم قليلاً عن مثل هذه الأشياء، ربما أكثر قليلاً مني أنا الذي لا يعرف شيئاً على الإطلاق. واستسلمت لاحتمال أن أظل بدون أخبار طوال ما تبقى من مدّة الرحلة، أو إلى أن ننال فرصة العثور على خبير في خيبر أو تيماء، بينما استمر هو في العبث بالجهاز، وقد كوفئ على صبره ومثابرته، وطرت فرحاً، في الساعة العاشرة، عندما انفجر صوت مفاجئ يفيدني بأنه قد اكتشف وأصلح العطل. وكان هناك أمر آخر أقض مضجعي في تلك الليلة وهو، على الرغم من أن خيبر كانت الآن على مرمى حجر منا، ويمكن أن نصلها بسهولة، ربما في حدود ساعة أو ساعتين، إلا أنني كنت شغوفاً بتأخير دخولي في ضيافة الأمير إلى أن أقوم ببعض الاكتشافات في الجزء الشرقي من الحرة حيث كان يوجد هناك بعض أعمال الري الشهيرة والسدود القديمة.

وقد ناقشت هذه الخطة مع عياض، عندما كان يركب معي في السيارة اللاندروفر، بيد أنه اعترف صراحة أنه يجهل تماماً هذا الجزء من الحرة، والتي لا يمكن الوصول إليها بالسيارة بأي حال من

الأحوال. وربما كان يتوق للوصول إلى خيبر بأسرع فرصة ممكنة ويقبض أجره ويرحل في سلام، مع ذلك فإنني أعتقد أنه كان أميناً ومخلصاً، وقد أسدى لي بالتأكيد خدمات كافية، على الرغم مما حدث من هفوة بصورة غريبة في النمرانية. ولم أشأ أن أضغط عليه بلا داع، لأن أفضل هؤلاء الأدلاء في الصحراء اليوم لهم حدودهم الإقليمية في معرفة الطرق على عكس الأدلاء من الجيل القديم، الذين كانت معرفتهم بمناطق شاسعة تعد شيئاً ملحوظاً ومطلوباً وذا أهمية عظيمة بالنسبة للقبائل المغيرة وللمواطنين الآمنين الذين ينشدون الأمن والماء أثناء تجوالهم في أعمالهم المشروعة على حدٍ سواء.

وكانت المشكلة أن أجد بديلاً عن عياض، وكنت آمل أن أجد شخصاً مناسباً في مضارب قبيلة حرب التي مررنا بها في طريقنا، ويكون ملماً بالمنطقة التي أردت زيارتها. لقد جاء بعض رجال القبيلة ليشاركونا العشاء، وقد كلفت العريفي بأن يتحسس إمكانية مثل هذا الإجراء. وكان من الواضح نسبياً أنه هو ورفاقه كانوا أشد شغفاً للوصول إلى ملذات خيبر أكثر من رؤية عجائب قصر البنت (العذارء)[1]، بيد أنني قلت لهم إننا سنمكث في مكاننا هاهنا إلى

(١) يشبه المؤلف قصر البنت في هذه المنطقة بـ: "Maiden Castle" وهو من أجمل القلاع الطينية وأكبرها في أوربة ويوجد في مدينة دورست بجنوب انجلترا ويعتقد أنه بني في حدود ٣٠٠ ق.م. المترجم.

أن أعثر على دليل. وقد أسعفني الحظ. ففي صباح اليوم التالي، وعندما كنت أحتسي الشاي، دخلت علينا شاحنتان -جاءتا من المدينة- في مخيمنا بغرض الاستراحة وتبادل الحديث مع "السيد" الذي كان معروفاً للسائقين وكان بحق شخصية محلية جديرة بالاحترام. كان من بين الركاب في الشاحنتين أحد الشيوخ القبليين عائداً من المدينة المنورة إلى خيبر، والذي كان مهتماً بكل سهولة بمشروعي، ربما لأسباب مالية فقط.

لقد كان يعرف الحرة بالكامل، ويعلم الطريق للأماكن التي أود رؤيتها، وفي الحقيقة كان من الواضح أنه ينتمي للمنطقة، واتضح بعد ذلك بصورة جلية أن جماعته يقيمون فيها منذ خمسة أجيال، والتي ذكرها صراحة لمصلحتي. وكان اسمه ويبان بن محمد بن لافي بن عتقه بن دخيل الله بن سعد. وكان - مثل عياض - من بني راشد، الذين - طبقاً لما قاله - ليسوا فرعاً من هتيم ولكنهم كانوا اتحاداً يضم قبائل الشرارات والفقيهات والعوازم وهتيم، وهي كلها قبائل غير أرستقراطية. ومن بين هؤلاء كانت العوازم تنحدر من سلف يسمى راشد، وهو أخو رشيد الجد الأعلى للمجموعات الثلاث الأخرى.

لقد قطعنا الآن حوالي مئة ميل (١٦٣ كيلومتراً) من المدينة المنورة، حيث تبلغ المسافة في خط مستقيم من هنا إلى خيبر ١٤٠

كيلومتراً، على الرغم من أننا كنا لا نزال على مسافة طويلة بعيداً عن خيبر. وقد ثبت أن ويبان كان حسن الصحبة رقيق المعشر، مما يؤكد زعامته المعترف بها في مجاله وحظه الوافر من الحكمة العملية الناجمة عن تجارب الصحراء. وبوجوده بجواري، سرعان ما وصلنا إلى حافة وادي الغرس، والذي توقفنا في منتصف قناته لعمل مسح سريع للموقف. وكان الوادي ينحدر إلى هذه النقطة من سلاسل الجبال البعيدة في الجنوب - الشرقي، ويواصل سيره قليلاً نحو الشمال - الغربي حتى غابة من أشجار السنط والدوم، والتي ينحني عندها الوادي إلى اليسار تجاه خط السكة الحديدية ووادي الحمض، وأمامنا مباشرة، على طول حافة الضفة اليمنى يمتد جبل العطوة وهو خليط من صخور البازلت والرايوليت. ويمر خلاله طريق خيبر عبر مضيق منخفض، ليطوق الجانب الآخر البعيد من الجبل في اتجاهه للواحة.

وعلى بُعد نحو ميل من الممر، كنا قد قطعنا الآن ١٧١ كيلومتراً من طريق المدينة، استدرنا تقريباً تجاه الشرق، متجهين نحو قمة الجبل الأبيض البعيدة عبر سهل منبسط تجاه أرض طينية تُعرف باسم قاع القَعْقَران، وكانت محاطة بالكامل تقريباً بالحرة، وعلى مدى ميلين تسابقنا فوق سطحها المنبسط حتى نهاية كومة من الحجارة فوق لسان منخفض من اللافا على الطريق الآخر. وقد تشكل هذه المسافة

أرضاً نموذجية لهبوط الطائرات وسط منطقة وعرة. ومن هنا كان علينا أن ندخل حقل اللافا، حينما أخبرني ويبان أنه لم تنجح من قبل إلا سيارة واحدة في الوصول إلى هدفنا الحالي، وهو وادي الثمد وسدوده الشهيرة. وهذا كان - فيما أعتقد - عندما قام تويتشل، في سيارته الفورد، بزيارة المنطقة لفحصها وكتابة تقرير عن إمكانياتها الزراعية منذ عدة سنوات مضت.

ومن المؤكد أن المنطقة لم تبدُ مغرية جداً، بيد أننا كنا ملتزمين بالمهمة، وعلى مدى مسافة أول ميلين كنا نستفيد من مزايا لسان ضيق من الأرض الطينية يخترق حقل اللافا. وفيما وراء ذلك كنا نضطر إلى اختيار طريقنا وسط أرض شديدة الوعورة تتناثر فيها بقع صغيرة من الطين الأجرد، إلى أن واجهنا موقفاً بدا مزعجاً بحق؛ فأمامنا يمتد واديان، وهما رافدان من وادي الغرس، وكانا ينذران بصعوبة بالغة، واقترحت أثناء الراحة أن نسير على الأقدام لنكوّن فكرة عن المشاكل والمتاعب التي تنتظرنا. لقد كان من الواضح بصورة جلية أننا لا يمكن أن نجازف بإدخال اللوري في مثل هذه الأرض، وقررت أن نتركها هناك حيث تقف في أرض طينية منبسطة بها بعض الشجيرات، وأن نتقدم بسيارة اللاندروفر فقط مع جماعة صغيرة لا تحمل إلا القليل من الأمتعة. وأصبحنا الآن على بُعد حوالي خمسة أميال من النقطة التي تركنا عندها الطريق الرئيس في وسط قفر غير مرغوب بحق.

وسرعان ما تم اتخاذ التعديلات الضرورية، وحيث إننا كنا نأمل متفائلين أن نعود إلى رفاقنا قبل حلول الظلام، فقد بدأنا مغامرتنا على الفور، ويبان وعياض وأنا وعضو آخر من المجموعة، مشينا بصعوبة بالغة فوق الصخور حتى حافة شعيب هدنة ثم هبطنا في واديه الذي يبلغ اتساعه نحو ٥٠٠ ياردة. ويوجد به آثار قصر صغير على التيار بُني فوق صخرة مستديرة، وقيل إنه تم بناؤه منذ حوالي سبع أو ثماني سنوات مضت بواسطة جماعة من المزارعين المغامرين. وبشيء من الصعوبة تمكنا من عبور الوادي، وخرجنا منه لنصعد إلى مرتفع منحدر ووعر يفصله مجرى آخر مماثل له ويسمى شعيب السُّمَيْنَان وكان اتساعه حوالي ٢٠٠ ياردة فقط، وبه بقايا لقصر آخر على مسافة في اتجاه المجرى وكذلك بقايا سد قديم على امتداد خط عبورنا.

وقد بدا أنه تم بناؤه بصورة متينة من صخور البازلت قليلة التشذيب ولكنها مبنية بناءً حسناً، على الرغم من أن الزمن والإهمال قد تركاه تحت رحمة السيول. وإلى البعيد من شمالنا يمتد نتوء ضخم ناعم أجرد من الجرانيت الأحمر، ويسمى السُّرَيِّر، يفصل قناة شعيب السُّمَيْنَان عن قناة شعيب الثمد، ويطل على منطقة مليئة بالنخيل بشكل هائل، وبها حي صغير مهجور كانت تسكنه من قبل مجموعة من الإخوان أيام التمسك بالاعتكاف الديني. ولم

نقطع تقريباً إلا ثلاثة أميال، بغير قليل من المتاعب والمصاعب منذ أن غادرنا اللوري، حتى وصلنا إلى الضفة اليسرى من الشريان الرئيس لهذه الأجزاء، وهو شعيب الثمد، أحد روافد وادي الغرس؛ لقد كان ذا اتساع عظيم وأكبر كثيراً من القناتين الأخريين اللتين عبرناهما بالفعل. وهو يتكون من عدة أفرع تجرى بالتوازي مع أفرع مشابهة لها من وادي الغرس نفسه. وكان من الواضح أن هذين المعلمين يندمجان هنا في دلتا واسعة، ذات أشجار كثيفة ومياه غزيرة في نقاط كثيرة. وبعد أن عبرنا خليجاً واسعاً يكوّن ما يشبه شاطئاً خلفياً للوادي، أتينا إلى أول فرع ينقل سيل الثمد في نقطة بها بستان هائل من أشجار النخيل يحيط ببركة ينبع مَعْرشَ الذي كانت مياهه -على كل حال- شديدة الملوحة وليست صالحة للشرب. وبعد سيرنا مسافة ميل تقريباً وصلنا إلى الفرع الثاني من الوادي، ربما يحمل اسم شعيب الثمد نفسه، والتزمناه في اتجاه عكس التيار حتى جئنا إلى واحة ساحرة من أشجار النخيل والدوم والقصب، تزدهر في سلسلة من برك المياه العذبة اللذيذة، والتي أطفأنا بها عطشنا.

وبعد حوالي ميل عكس التيار أتينا إلى آثار ومبانٍ سوداء قاتمة لقرية تقبع على جرف اللافا (الحمم البركانية) المنخفض في الضفة اليمنى للوادي. وكانت هذه القرية تدعى هجرة الثمد، وتعرف

أيضاً باسم هجرة ابن لافي، والتي أقامها الجد الأعلى لويبان ليسكن فيها مجموعة صغيرة من الوهابيين الملتزمين خلال الجزء الأول من القرن الحالي (العشرين) وعندما تركناها لنفحصها فيما بعد، واصلنا السير في الوادي، ولكن بعد أقل من ميل كنا قد اضطررنا لمغادرة السيارة وتنفيذ ما تبقى من الاستكشاف سيراً على الأقدام. لقد وصلنا إلى بقعة فائقة الإثارة والجمال من الأرض، والتي كان المعلم البارز فيها هو سد الحَصيد العظيم. إن شعيب الحَصيد الذي يهبط من المستويات العليا للحرة بين سلاسل الجبال البازلتية واضحة المعالم ليتصل بشعيب الثمد، كان مليئاً تماماً بالسدود التي بناها الأقدمون، وربما كانوا هم يهود خيبر، لتوفير ري دائم طول السنة في الوادي الرئيس. وكان خزان المياه الذي استحدث بهذه الطريقة يمتد عدة أميال ويبلغ متوسط اتساعه نحو مئة ياردة والحد الأقصى لارتفاعه يصل إلى أربعين قدماً.

والشيء المذهل حقاً هو أن السد نفسه -حسب بنائه في الأصل- يبدو أنه قد بقي سليماً بالكامل، بالرغم من أن الصخر على جانبيه قد تآكل بصورة طفيفة بعوامل الزمن والسيول، ونتج عن ذلك فجوة أو ثغرة حوالي اثني عشر قدماً على كلا الجناحين، تتدفق من خلالها السيول الحالية بصورة بطيئة وهي في طريقها غير الممهّد إلى البحر. وبين هذه الفجوات صمد هذا السد العظيم شامخاً أمام

العواصف والضغوط لما لا يقل عن خمسة عشر قرناً من الزمان، بطوله البالغ ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٤٠ قدماً. وبناؤه مشيد من أحجار بازلتية غير مشذبة وكبيرة نسبياً، بطريقة رائعة ومحمية من الجانب المواجه للتيار بإدخال ملاط من الجبس فيه، مفتت في بعض الأماكن ولكنه مدهش وبحالة جيدة على العموم.

أما الجانب الآخر من السد باتجاه التيار فمزيّن ببناء غطاء من الحجارة الصغيرة المشذبة، وبروز مقوس بحجم الإنسان لا تعرف أهميته، على الرغم من أنه محتملٌ أن يكون لمجرد الزينة فقط؛ ذلك لأنه لا يوجد رابط بينه وبين الجانب الآخر من السد في أعلى التيار.

ويبلغ سمك ثلثي الجانب الأدنى ضعف سمك القسم العلوي وقد وضعا في وسطه ليوفرا رصيفاً واسعاً على كلا الجانبين. ولم أتمكن من العثور على أي علامة للبوابات في البناء أو الهيكل، وهذه، إن وجدت على الإطلاق، قد تكون في كل من طرفي السد في الفجوات التي ذكرتها سابقاً. وليس من المؤكد، على كل حال، أن هذه السدود العربية القديمة، التي توجد أمثلة جيدة منها في الأودية حول الطائف، قد صممت لتوفر الريّ بالقنوات في اتجاه مجرى التيار. ويبدو أن بعضها على الأقل بُني لحجز السيول لزراعة أحواض من الرواسب الطينية، بعد استقرار المياه وتوقفها.

وفي هذه الحالة فإن المياه التي حجزها السد قد تمتد عدة أميال عكس اتجاه التيار، مما يوفر مئات الأفدنة أو أكثر من التربة الخصبة. وأمام السد باتجاه مجرى التيار يوجد حوض هائل، شبه مستدير والذي من المؤكد أنه كان منطقة للزراعة، بالمياه التي حجزها السد وتصرف من خلال بوابات، إذا كان هناك فعلاً أيٌّ منها، أو من العيون والينابيع التي تشكلت من تسرب الماء بشكل طبيعي تحت السد. وفي الحقيقة، توجد واحدةٌ من تلك العيون عند أسفل السد، مع آثار باقية من قنوات الري التي تمتد منها في الحوض، الذي تنتشر فيه أشجار النخيل انتشاراً طيباً.

هذه العين، على كل حال، لم تكن متدفقة في وقت زيارتنا، على الرغم من وجود المياه في حفرتها الضحلة، والتي تعطلها تقريباً بعض الأعشاب المزدهرة. ويجب علينا أيضاً أن نذكر أن قناة شعيب الثمد، التي يبدو أنه لم يوجد بها سدود على الإطلاق، تدخل هذا الحوض من الجانب المقابل للسد، وتوفر بلا ريب مياه السيول على فترات متفاوتة. وعلى أرض مرتفعة قليلاً قرب مخرج الحوض تقف قلعة قديمة، مشيّدة من صخور البازلت القوي، غير المشذبة في الداخل ولكنها لا تزال تحتفظ بأجزاء من الحجارة المشذبة في أجزاء باقية من الجدران الخارجية. ويحتمل أن تكون من عصر السد نفسه، ولكنها كانت في حالة من التهدم الشديد الذي لا يسمح لنا بأي استنتاج.

وبعد أن انتهينا من فحصنا للسد وما حوله فقد عدنا للسيارة، وتقاسمنا شاي الترحيب من الإبريق الخاص بي، وجمعنا حطباً لنوقده في الليل الذي من المؤكد أنه سيكون بارداً، ثم رجعنا إلى هجرة الثمد. ولم نكن قد وضعنا في حسباننا قضاء الليل في الخارج، ولم نحضر معنا إلا القليل من المؤونة، بيد أن ويبان لم يكن ليهزمه هذا الموقف، فقام يتجول بحثاً عن الطعام وأوانٍ لجمع الماء من البرك الواقعة في اتجاه مجرى التيار. ولم يمض وقت طويل حتى عاد إلينا، مع صديق وصبي وقربة ماء.

وأخذته بالسيارة إلى البرك حتى يملأ القربة، ثم سرعان ما استقر بنا الحال في المسجد المكشوف (بغير سقف) في القرية المهجورة ونلنا قسطاً من التدفئة بالنيران المشتعلة الجميلة، التي كان الطفل يطهو عليها عشاءنا. وكان رفيقنا الجديد يُدعى دليم بن سمران بن محمد ابن سمرة، من فخذ آخر من بني رشيد. ولا يعلم هو أو ويبان شيئاً عن الأصل المحلي لهذه السدود أو مصيرها. وحتى الاسم المثير والمحير لقصر البنت لم يُثر لديهما أي فضول أو تساؤل، على الرغم -طبعاً- من أنهما يعلمان أنه سد وليس حصناً. وكانت جدران المسجد توفر لنا حماية طيبة من الريح، التي كانت تهب بقوة معظم النهار واستمرت حتى الليل. ولاحقاً تمكن الطفل من تدفئة دواخلنا بتقديم الطعام.

وجاء دور الشاي بعد العشاء، ولم يكن هناك ما يعكر صفونا في تلك الليلة، إلا أنني قد نسيت أن أضع علبة الدخان في محفظة أغراضي الخاصة، وقد استنفذت الآن ما كان معي. ولم يكن لدينا أسرّة بالطبع، ولكننا تغطينا بعباءتنا حول النار، التي كان دليم يشبّها من حين لآخر، ورحنا نغط في نوم عميق على الرغم من البعوض الذي كان شديد الإزعاج خلال الليل، مع أن دخان النار كان يحد نسبياً من رغبته في مص دمائنا. وكانت هجرة الثمد تبعد حوالي اثني عشر ميلاً بجانب مسارنا من النقطة التي تركنا عندها الطريق الرئيس.

وقد استيقظنا عند الفجر للصلاة وشرب الشاي، وتجمعنا حول النار مدة انتظاراً للشمس حتى نعطيها فرصة لتدفئة الجو الخارجي.

وبعد الساعة الثامنة مباشرة ذهبت لتشغيل السيارة، ولكن المحرك كان بارداً، ورفض أن يستجيب لمفتاح التشغيل، ولجأنا إلى دفع السيارة بقوة، ولكن على الرغم من أنّ حدوث حركة واحدة في المحرك دفعت الأمل في قلوبنا، إلا أن ذلك كان بغير جدوى. وبكل شهامة تطوع ويبان ليعود سيراً إلى مكان الشاحنة لطلب المساعدة، وقضيت وقت الانتظار هذا في دراسة المنطقة الجرداء حولنا من القرية من فوق تل ملائم قريب.

لقد اختفى الآن جبل البيضاء بصورة نهائية، ولكن الجبل الأبيض كان ظاهراً للعيان في اتجاه شرق - شمال - شرق، مع سلسلة جبال الحرة العالية التي كان نقطتها المركزية. وفيها عددت ثلاث عشرة قمة عن شمالها وسبع عشرة عن يمينها، وهي كلها فوهات لبراكين موغلة في القدم. وإلى البعيد باتجاه الشمال الغربي على كتف جبل عطوة تمتد جبال الهجر العظيم، بقممها الثماني الشاهقة التي تشكل قوساً حوالي خمس عشرة درجة. وفي مسافة أبعد إلى الشمال كان قمع جبل الغَمْرَة الرائع يمثل علامة طريق السيارات من خيبر إلى حائل، الذي يجب علينا التزامه قريباً في جزء من مسيرتنا. والطريق المباشر من خيبر إلى العلا على خط السكة الحديدية عبر سهل الصحن يستغرق ثلاثة أيام بالجمال.

كانت الساعة الثالثة عصراً تقريباً في ليلة عيد ميلاد المسيح عندما عاد ويبان بفريق الإنقاذ لنا، محمد العريفي نفسه وبالطبع " السيد " الذي سرعان ما جعل اللاندروفر يتحرك بهدوء ولم أكن نادماً على مغادرة المكان الذي اضطررنا إلى الإقامة المؤقتة فيه. فالمسجد نفسه، بعد أن أصبح مهجوراً وغير مستعملٍ في الغرض الذي بناه من أجله مؤسسوه، قد كان من الواضح مستخدماً بصورة منتظمة كحظيرة للأغنام ولأعمال المطبخ. ولم تمتد قناة وادي الغرس الرئيسة إلا مسافة ميل واحد، وقد سرنا بها في الاتجاه المعاكس للتيار حتى آبار

العَفَريَة، حيث تمنع الصخور الكبيرة من الوادي أي مزيد من التقدم على العجلات. ولم يكن السد ببعيد أكثر من ميل واحد، وقد مشينا عليه على أرض من اللافا القاسية في الضفة اليسرى، ثم عدنا بعد ذلك لمجرى السيل، الذي كان فيه الكثير من برك مياه الأمطار الأخيرة، والتي قيل إنها سببت سيلاً صغيراً قبل خمسة أسابيع. إن ستّاً من آبار العَفَريَة كان بها الكثير من المياه العذبة في أعماق تتراوح من اثنتين إلى أربع قامات (والقامة مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام)، في وسط مزرعة رائعة، على الرغم من صغرها، من أشجار الدوم. كان اتجاه الوادي من هذه النقطة من الجنوب – الشرقي إلى الشمال – الغربي.

إن سد قصر البنت الشهير ذو أبعاد أكبر بكثير من أبعاد سد الحصيد، بالرغم من أن ربعه في طرف الضفة اليمنى قد انهار بالكامل بسبب السيول، ولم يبقَ إلا أجزاء من البناء الذي يستند على الضفة. وكان الباقي سليماً، بارتفاع يبلغ نحو ٥٠ قدماً، ويبلغ سمكه ٥ر١٣ قدماً في القمة، ويتسع السُمك إلى ضعف ذلك في القاعدة.

ولابد أن البناء الأصلي كان طوله ٥٠٠ قدم تقريباً، وكان مشيداً من صخور البازلت المشذبة بصورة مهملة، ولكنها مركّبة مع بعضها بصورة رائعة ومتماسكة بملاط من الجبس.

والوجه المعاكس لمجرى التيار كان مبطناً بالإسمنت من القمة حتى حوالي عشرة أقدام من القاعدة وربما تكون الطبقة السفلى من الإسمنت قد تكسرت بفعل السيول وانجرفت بعيداً. وهنا مرة أخرى لا يوجد أي أثر للبوابات، والاحتمال الذي ذكرناه فيما يتصل بسد الحَصيد ربما ينطبق أيضاً على سد قصر البنت. ولابد أن الزراعة التي كانت تروى منه كانت في اتجاه عكس التيار، حيث توجد الآن مزرعة مزدهرة من أشجار الدوم وكثير من نباتات الصحراء. وفي طرف الضفة اليسرى، باتجاه مجرى التيار، يوجد جدار يبرز منها حوالي ١٠٠ قدم يشكل نوعاً من الرصيف يصعب تحديد الغرض منه. ولا يتذكر ويبان أي سيل عظيم في هذا الوادي، إلا أن الأسطورة المحلية لا تزال تقول، حسب ذاكرة الأحياء، حدوث السيول مرتين في وادي الحَصيد، حيث غمرتا وفاضتا من فوق السد، مرة منذ عشرين عاماً مضت، والثانية قبل ذلك بحوالي خمس سنوات.

وعند عودتنا للمخيم، لم يكن لدينا إلا بعض الطعام البائس في ليلة عيد ميلاد المسيح، وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء غير الخبز الناشف "شابورة"، وهو محمص إلى حد ما، والذي كنا نغمسه في الشاي حتى نجعله صالحاً للأكل. كذلك لدينا علبة واحدة من كمثرى كاليفورنيا.

لم يكن هناك فرصة للحصول على لحم، إذ لا يوجد هناك رعاة يرعون قطعانهم تلك الليلة في المنطقة المجاورة لنا، وليس هناك من تبغ للغليون، على الرغم من أنه كان معي صندوق من السيجار، الذي كنا ندخنه بلذة ونحن نرشف الشاي حول النار. وقد أمتعنا "السيد" بحكايات عن شهامة العرب التي استقاها من قراءاته المدرسية، وأسهم ويبان بشذرات من المعلومات عن المنطقة. وكان بئر العَفَريَة الرئيس، الذي يبلغ عمقه ٢ر٥ قامتين ونصف القامة، وقطره ١٢ قدماً، مكسواً حتى مستوى الماء ببناءٍ من الحجارة البازلتية الصغيرة غير المشذبة. وعلى الصخور المجاورة وجدت ثمانية نصوص عربية قصيرة ليس لها أهمية تذكر، فقد كانت نقوشاً بسيطة عبارة عن دعوات بالرحمة على شخص ما ميت. وكان تاريخ أحدها يعود إلى عام ٣١٢ ربما ١٣١٢ هجرية (١٨٩٤ - ١٨٩٥ ميلادية)، وكانت تبدو جميعها معاصرة لبعضها، ربما تخليداً لذكرى أسرة كانت تحاول إقامة مستوطنة على هذه الآبار. ومرة أخرى كان هناك الكثير من البعوض.

وقد بدأنا يومنا مبكراً في صبيحة عيد ميلاد المسيح عندما كانت أشعة الشمس الشاحبة تسطع بين أشجار الدوم، وسرعان ما عدنا إلى برك مَعْرَش المالحة ومن هناك سلكنا الطريق الذي أتينا منه لننضم مرة أخرى إلى رفاقنا. وهنا التهمنا تمور المدينة واحتسينا

الشاي، بينما استطعت أن أشبع نهمي من الغليون. وقد انكب طبّاخنا على العمل لإعداد وجبة إفطار فاخرة من " الحنيني "، وهو هريس بارد من التمور، والعجين والسمن، في حين كنت أستمع للأخبار من هيئة الإذاعة البريطانية.

وكان الوقت يقترب من الحادية عشرة صباحاً قبل أن ننطلق، مع نسيم لطيف يهب علينا من الجنوب - الشرقي ويدفعنا للسرعة. وسرعان ما عدنا إلى الطريق الرئيس، وولينا وجهنا شطر خيبر، وسرنا فوق سهلٍ من الحصباء الخفيفة، مع سلسلة جبال عطوة على طول جناحنا الأيسر، والحرة تمتد موازية إلى اليمين حوالي نصف ميل. وبعد أميال قليلة تمتد الحرة مرة أخرى، وأصبح السير أكثر صعوبة وقسوة، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجدنا الواحة الشهيرة تمتد أمامنا بكل بهائها الخبيث، وقلعة قديمة تجثم على صخرتها، ترتفع إلى أعلى فوق أشجار النخيل الكثيفة والقرى البائسة في وادٍ تاريخي. وهنا توقفنا بعض الوقت لنسجل كل شاردةٍ وواردةٍ بالتفصيل عن هذا المشهد الطبيعي الرائع قبل أن ندخل القرية نفسها، حيث أوقفنا - بعد حين - سياراتنا في باحة سوق الشريف. لقد قطعنا ما مجموعه ٢٢٥ كيلومتراً منذ أن غادرنا المدينة، وكانت المسافة منها إلى خيبر ١٧٩ كيلومتراً على الطريق الرئيس. وكان قصر البنت يبعد حوالي ٣٠ كيلومتراً عن خيبر، وهذا يعادل تقريباً المسافة من خيبر إلى سد الحَصِيد.